

إشارات تاريخية في مولد الرسول ﷺ

الأستاذ محمد بن محمد العلمي

- جاء في (كتاب مختصر سيرة الرسول ﷺ) للشيخ محمد بن عبد الوهاب، الصفحة 12، أن غالبية العرب كانوا يعبدون الله ويوحدونه، ويدينون بدين إسماعيل بن إبراهيم. إلا أنه بعد طول الأمد، كان عمرو بن لحي رئيس خزاعة قد سافر إلى الشام، فرآهم يعبدون الأوثان، فاستحسن ذلك وظنه حقاً، فقدم بهل، وجعله في جوف الكعبة، ودعا أهل مكة إلى الشرك فأجابوه.

- وجاء في الجزء الأول من صحيح البخاري، الصفحة 222، أن من أقدم أصنام العرب مناة، ثم اللات، ثم العزى، ويقال إن أصنام قوم نوح : ود، ويغوث، ويعوق، ونسر، كانت مدفونة بجدة، استشارها عمرو بن لحي رئيس خزاعة، جاء وجاء بها إلى تهامة... وكان لكل قبيلة في كل بيت صنم. وأثناء فتح مكة، وجد رسول الله ﷺ، حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً، فحطمها عن آخرها، ولم يترك لها أثراً، كما ورد ذلك في (كتاب مختصر سيرة الرسول ﷺ) للشيخ محمد بن عبد الوهاب، الصفحات 13 - ثم 50 - 51 - 52 - 53 - 54.

- وجاء في (سيرة ابن هشام) : أن العرب كانوا يعكفون على الأصنام، ويستغيثونها، معتقدين أنها تشفع عند الله، وكانوا يحجون إليها، ويطوفون حولها،

ويسجدون لها، وكانوا يتقربون إليها بالذبائح، فينحرون بأسمائها، كما يخصصون لها من مآكلهم ومشاربهم ما يبدو لهم، وكذلك الشأن من حرثهم وأنعامهم. كما كانوا يجعلون من ذلك نصيبا لله وينقلون إلى الأصنام ما كان لله، ولكن لا ينقلون إلى الله ما كان لأوثانهم. فقد جاء في الآية 3 من سورة المائدة : ﴿وما ذبح على النصب﴾، وفي الآية 121 من سورة الأنعام : ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾. وفي الآية 136 من نفس السورة : ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا، فقالوا هذا لله بزعمهم، وهذا لشركائنا. فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم. ساء ما يحكمون﴾. وفي الآية 138 من نفس السورة كذلك : ﴿وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم، وأنعام حرمت ظهورها، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه﴾. وفي الآية 103 من سورة المائدة : ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة، ولا وصيلة، ولا حام، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب، وأكثرهم لا يعقلون﴾. وفي الآية 139 من سورة الأنعام : ﴿وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء﴾. ومعنى البحيرة : بنت السائبة، وهي الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهم ذكر سيبت، فلم يركب ظهرها، ولم يجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف، فما نتجت بعد ذلك في أنثى، شقت أذننها، ثم خلي سيلها مع أمها، فلم يركب ظهرها، ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف، كما فعل بأمها. فهي البحيرة بنت السائبة. والوصيلة هي الشاة التي ولدت عشر ثوائم إناث متتابعات في خمسة أبطن، ليس بينهم ذكر، جعلت وصيلة، قالوا : قد وصلت. فكان ما ولد بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم، إلا أن يموت شيء، فيشترك في أكله ذكورهم وإناثهم. والحامي هو الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس ذكر، حمي ظهره، فلم يركب، ولم يجز وبره، وخلي في إبله، يضرب فيها، لا ينتفع منه بغير ذلك. (انظر كتاب الرحيق المختوم) للشيخ صفي الرحمان المباركفوري، الصفحتان 48 - (49).

وكانت العرب تفعل كل ذلك بالأصنام، اعتقاداً أنها تقرّبهم إلى الله، وتشفع لديه، وتوصلهم إليه، فقد جاء في الآية 3 من سورة الزمر : ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ وفي الآية 18 من سورة يونس : ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾.

- وكانت العرب تستقسم بالأزلام، وتتعامل بالميسر، والقداح، وهو نوع من القمار، وتؤمن بأخبار الكهنة والعرافين والمنجمين... وكانت فيهم الطيرة، وهي التشاؤم بالشيء... وكانوا يعلقون كعب الأرنب، كما يتشاءمون ببعض الشهور والأيام، والحيوانات، والديار، والنساء، ويعتقدون العدوى، ويزعمون أن المقتول لا يسكن قبره، ما لم يؤخذ بثأره، وتصير روحه هامة أي بومة تطير في الفلوات، وتقول : صدى صدى، أو استقوني، فإذا أخذ بثأره، سكن واستراح، كما ورد ذلك في الجزء الثاني من صحيح البخاري، الصلحات من 751 إلى 757، مع حواشيه، للشيخ أحمد علي السهارنفوري.

وكان أهل الجاهلية يعظمون البيت، ويطوفون به، ويقومون بالحج والعمرة، والوقوف بعرفة، والمزدلفة، ويهدون الذبائح. لكن قريشا كانوا لا يقفون بعرفة، ولا يفيضون منها. وإنما كانوا يفيضون من المزدلفة. حسبما ذكره ابن هشام في سيرته. المجلد الأول، الصفحة 199، وصحيح البخاري، المجلد الأول، الصفحة 226. وفي ذلك جاءت الآية 199، من سورة آل عمران : ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾.

- وفي الصفحة 202 من المجلد الأول، من (سيرة ابن هشام) : كان الرجال يطوفون عراة، وكانت المرأة تضع ثيابها كلها، إلا درعا مفرجا. وفي ذلك جاءت الآية 31 من سورة الأعراف : ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾. وكانوا لا يأتون البيوت في أبوابها في حال الإحرام، وقد منع القرآن ذلك في الآية 189 من سورة البقرة.

- وبما أن عبادة الأوثان، والاعتقاد بالوهميات والخرافات، كانت ديانة معظم العرب، فقد وجدت اليهودية، والمسيحية، والمجوسية، والصابئية، سبيلا للدخول إلى

جزيرة العرب. (انظر كتاب «تفهيم القرآن» الجزء 6، الصفحتان 297 - 298، و«سيرة ابن هشام» المجلد الأول، الصفحات : 20 - 21 - 22 و27، و31، و35 - 36. وكذا الصفحات : 31 - 32 - 33 - 34).

- وكان للوثنيين، وعاداتهم، وتقاليدهم، وخرافاتهم، التأثير البالغ في الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية... واهتم اليهود بالأخص بالمال والرياسة... وأوجدت النصرانية خلطاً عجيباً بين الله والإنسان... وتشابهت قلوب المشركين، وتواردت عقائدهم، وتوافقت تقاليدهم وعاداتهم، ونزلت الحالة الاجتماعية إلى أسفل حضيض في العهارة والإباحية، والفسوق والانحلال الخلقي، والدعارة والمجون والفاحشة، بما في ذلك نكاح الاستبضاع، ونكاح المقت، ونكاح الرهط... وكانوا يجمعون بين الأختين، ويتزوجون بزوجات آبائهم إذا طلقوهن أو ما تواعنهن وكانت فاحشة الزنا سائدة بين جميع الأوساط. وكانت علاقة الرجل مع أولاده فيها عجائب وغرائب : من ذلك وأد البنات خشية العار والإنفاق، وقتل الأولاد خشية الفقر والإملاق. الآية 151 في سورة الأنعام : ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً، وبالوالدين إحساناً. ولا تقتلوا أولادكم من إملاق. نحن نرزقكم وإياهم. ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق. ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾. وكذا الآيتان 58 و59 من سورة النحل : ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم. يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون ؟ أم يدسه في التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون﴾. والآية 31 من سورة الإسراء : ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق، نحن نرزقهم وإياكم. إن قتلهم كان خطئاً كبيراً﴾. والآية 8 من سورة التكوين : ﴿وإذا الموعدة سئلت، بأي ذنب قتلت ؟﴾.

- أما عن العصبية القبلية، فقد بلغت أقصاها... وعن القوة المتفانية في الحروب، فحدث عن البحر ولا حرج... وكان الجهل ضارباً، أطنابه، والناس

يعيشون كالأنعام. والمرأة مجرد بضاعة تباع وتشترى. ولا هم لذوي السلطة سوى ملء الخزائن على حساب الرعايا، وخوض الحروب الضارية ضد المناوئين. وكان الأمن مفقودا إلا في الأشهر الحرم التي كانت تعقد خلالها الأسواق التجارية الشهيرة عند العرب، وهي عكاظ، وذو المجاز، والمجنة.

- كان عرب الجاهلية مشهورين بالكرم، يتمدحون بشرب الخمر، والاشتغال بالميسر، لما لهم في ذلك من أرباح وفيرة. ولذلك نرى القرآن لا ينكر نفع الخمر والميسر، فقد جاء في الآية 219 من سورة البقرة : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخمرِ وَالْمَيْسِرِ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ، وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾. كما كان عرب الجاهلية يوفون بالعهد، ويتمسكون به، ويستترخصون في سبيله قتل أولادهم، وتخريب ديارهم. وقصة هانئ بن مسعود الشيباني، والسموأل بن عادي، وحاجب بن زرارة التيمي، كلها شاهدة على ذلك... وكانوا يشتهرون أيضا بعزة النفس، وإباء الضيم... وكانوا يعضون في عزائمهم لا يصرفهم عنها صارف... وكانوا ذوي حلم وأناة وتؤدة، كل ذلك في سذاجة بدوية بعيدة عن التلوث والتصنع والكيد، وأقرب ما يكون القرب إلى الصدق والأمانة. وكانت هذه الأخلاق العالية، بالإضافة إلى الموقع الجغرافي لجزيرة العرب، وبالنسبة إلى العالم أجمع، مما أهل هذه الأمة إلى التركيز عليها في القيادة إلى الهدء والخير، ومحاربة الشر، وقيادة البشرية جمعا إلى شتى الإصلاحات والمنافع التي يزخر بها الإسلام.

وتعرف أسرة النبي ﷺ بالأسرة الهاشمية، نسبة إلى جده هاشم بن عبد مناف، الذي كان قد تزوج سلمى بنت عمرو، أحد بني عدي بن النجار، وولدت له عبد المطلب الذي آل إليه أمر السقاية والرفادة (انظر كتاب «مختصر سيرة الرسول» للشيخ محمد بن عبد الرهاب النجدي، الصفحتان 41 و42). ومن أهم ما وقع لعبد المطلب، حفر بئر زمزم، ومعركة الفيل. وكان عبد المطلب قد نذر لئن آتاه الله عشرة أبناء، لينحرن أحدهم عند الكعبة : (انظر «سيرة ابن هشام : الجزء الأول» الصفحات من 142 إلى 147).

وكان لعبد المطلب عشرة بنين، هم : الحارث، والزبير، وأبو طالب، وعبد الله، وحزمة، وأبو لهب، والغيدق، والمقوم، وصفار، والعباس. كما كان له ست بنات، وهن : أم الحكيم البيضاء، وبرة، وعاتكة وصفية، وأروى، وأميمة (انظر كتاب «تلقيح فهوم أهل الأثر» الصفحتان : 8 و9، وكتاب «رحمة للعالمين» الجزء الثاني : الصفحة 56 والصفحة 66).

وعبد الله والد الرسول ﷺ - أمه فاطمة بنت عمرو، بن عائذ، بن عمران، بن مخزوم، بن يقظة، بن مرة. وكان عبد الله أحسن أولاد عبد المطلب، وأعفهم وأحبهم إليه. وهو الذبيح... وبلغت الإبل التي افتدى بها عبد المطلب، ولده عبد الله، مائة بالتمام، وقعت عليها القرعة في الأخير، بعد ما كانت لا تقع إلا على عبد الله، فنحرها عنه، ثم تركها، لا يرد عنها إنسانا ولا سباعا. وكانت الدية في قريش وفي العرب، عشرا من الإبل : حتى صارت بعد هذه الوقعة مائة من الإبل، وأقرها الإسلام. فقد قال النبي ﷺ : «أنا ابن الذبيحين» يعني إسماعيل بن إبراهيم، وعبد الله بن عبد المطلب. (انظر «سيرة ابن هشام» الجزء الأول، الصفحات من 151 إلى 155... وكتاب «رحمة للعالمين» الجزء الثاني، الصفحتان 89 - 90، وكتاب «مختصر سيرة الرسول» للشيخ عبد الله، الصفحات 12 و22 - 23).

واختار عبد المطلب لولده عبد الله آمنة بنت وهب بن عبد مناف، بن زهرة، بن كلاب، وهي يؤمئذ أفضل امرأة في قريش نسبا وموضعا، وأبوها سيد بني زهرة حسبا وشرفا. فبنى بها عبد الله في مكة. ثم نزل بالمدينة وهو مريض فتوفي بها، قبل أن يولد الرسول ﷺ، شهرين اثنين. ولم يخلف عبد الله، سوى خمسة من الإبل، وجارية جشية اسمها بركة، وتكنى أم أيمن، وهي حاضنة الرسول ﷺ (انظر «سيرة ابن هشام» الجزء الأول، الصفحات من 156 إلى 158. وكتاب «فقه السيرة» للأستاذ محمد الغزالي، الصفحة 45. وكتاب «رحمة للعالمين» الجزء الثاني، الصفحة 91. وكتاب «طبقات ابن سعد» الجزء الأول، الصفحة 62. وكتاب «مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي، الصفحة 12. وكتاب «تلقيح فهوم أهل الأثر» الصفحة 4، وكتاب «صحيح الإمام مسلم» المجلد الأول، الصفحة 96).

- وقد ولد سيد المرسلين ﷺ، بشعب بني هاشم بمكة في صبيحة يوم الإثنين التاسع من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان.

وكان أبرهة الحبشي، النائب العام عن النجاشي في الين، لما رأى العرب يحجون الكعبة، قد بنى كنيسة كبيرة بصنعاء، وأراد أن يصرف حج العرب إليها. وسمع بذلك رجل في بني كنانة، فدخلها ليلا، ولطخ قبلتها بالعذرة، فاغتاظ لذلك أبرهة، وسار بجيش قوامه ستون ألف جندي إلى الكعبة ليهدمها، واختار لنفسه فيلا ضخما من الأفيال التسعة التي كانت في الجيش. وفي مدخل مكة برك الفيل ولم يتحرك بحال من الأحوال، لكنه قام يهرول كلما وجهوه إلى الجنوب أو الشمال أو الشرق. وإذا ما أعادوا صرفه إلى مكة، برك وحرن. وحينذاك أرسل الله عليهم طيرا أبابيل، ترميهم بحجارة من عجيل، فجعلهم كعصف مأكول. وكانت الطير أمثال الخطاطيف، مع كل طائر ثلاثة أحجار مثل الحمص، واحدة في منقاره، وإثنتان في رجله. لا تصيب منهم أحدا الأصار تتقطع أعضاؤه وهلك. وأما أبرهة الأشرم، فقد سلط الله عليه داء تساقطت بسببه أنامله، وعند بلغ صنعاء كان في منتهى الإرهاق والهزل، وانصدع قلبه عن صدره، ثم مات شر مودة. (انظر «سيرة ابن هشام» الجزء الأول، الصفحات من 43 إلى 56. وكتاب «تفهيم القرآن». الجزء السادس، الصفحات من 462 إلى 469).

- ولما ولدته أمه، أرسلت إلى جده تبشره، فدخل عبد المطلب الكعبة، ودعا الله وشكر له، واختار له من الأسماء محمدا، وختنه يوم سابعه، كما كانت العرب تفعل. (انظر «سيرة ابن هشام» الجزء الأول، الصفحتان 159 - 160. وكتاب «محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري. الجزء الأول، الصفحة 62. وقيل إنه ﷺ، ولد محتونا حسبا جاء في كتاب «تلقيح فهوم أهل الأثر» الصفحة 4. وكتاب «زاد المعاد» لابن القيم الجوزية، الجزء الأول. الصفحة 18).

- وسواء مع أمه الحنون، أو مع جده العطوف، أو مع عمه الشفيق، أو مع بحير الراهب، أو في زواجه لخديجة، أو في تحكيه أثناء بناء الكعبة، فقد كان المثل الأعلى

في الاستقامة والنور والبهاء : فهو أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقا، وأعزهم جوارا، وأعظمهم حملا، وأصدقهم حديثا، وألينهم عريكة، وأعفهم نفسا، وأكرمهم خيرا، وأبرهم عملا، وأوفاهم عهدا وأمانة، حتى سماه قومه «الأمين»، لما جمع الله فيه من الأحوال الصالحة، والخصال المرضية. فقد كان كما قالت عنه أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها : يحمل الكل، ويكسب المعدوم، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق. (انظر صحيح البخاري، باب بيان الكعبة المجلد الأول، الصفحة 450. ونفس المصدر مع شرح القسطلاني، وكذا هذا الصحيح في المجلد الأول. الصفحة 3).

اللهم صل وسلم وبارك على هذا الرسول، النبي الأمي الكريم، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته وجميع من انتمى إليه، في الأولين، وفي الآخرين، وفي الملاء الأعلى إلى يوم الدين، واجعلنا في زمرة وجواره، وأكرمنا بشفاعته، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم، بفضلك وكرمك وجودك وإحسانك، يا أرحم الراحمين... صلاة وسلاما وبركة ترضيك، وترضيه، وترضى بها عنا يا رب العالمين. آمين.